

السياق التداولي في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي

The discourse context in the interpretation of Al-Jawahir Al-Hassan by Al-Tha'alibi

ط/د عبدالرحمن كرومي

جامعة أحمد درايعية أدرار / الجزائر،

جامعة أحمد درايعية أدرار / الجزائر،

مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية مخبر الدراسات الإفريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

mebarekblali@hotmail.com

abe.kerroumi@univ-adrar.edu.dz

تاريخ القبول: ٢٠٢٥/٠٣/١٢ النشر: ٢٠٢٥/٠٦/٠٢

تاريخ الاستلام: ٢٠٢٥/٠١/١٢

ملخص:

تكمن إشكالية البحث في قولنا إلى أي مدى وفق الثعالبي في تحقيق الفهم، عن طريق توظيف جملة من السياقات لتأدية دور معرفة المعنى المراد؟ ويشتمل البحث على عدّة أهداف يمكن حصرها في: بيان أهمية الدراسات اللغوية التداولية، وتقديم مفهوم للسياق ودوره في تفسير الثعالبي؛ وتتجلى أهمية البحث فيما يلي: أهمية منهجية: تكمن في التعرف على السياق التداولي في استنتاج النصّ القرآني، وتبين الهدف منه في الدراسة، وأهمية موضوعية: تتمثل في بيان جهود الثعالبي وإسهاماته القيمة في مجال التفسير وتقريب النصّ القرآني، وأهمية علمية: تتجلى في الدراسات الحديثة للتفسير تركز على جوانب مهمة وقيمة؛ وجاء وفق منهجية تكمن في مقارنة تحليلية لاستنباط المعاني القرآنية والتعمق فيها بمعرفة المقاصد الإلهية بواسطة الآليات السياقية؛ والنتائج المتحصل عليها هي مساهمة الثعالبي في إضافة بعض اللمسات المختلفة عن التفاسير السابقة في توظيف آليات السياقات المختلفة المتمثلة في بلاغة القرآن الكريم، والدور الذي أداه التفسير في توصيل المعنى بطريقة منهجية، تمكّن من المساعدة على الفهم والاستيعاب.

الكلمات المفتاحية: سياق؛ تفسير الثعالبي؛ آليات سياقية؛ تداولية؛ دراسات لغوية.

Abstract :

The problem of this research is To what extent did Al-Tha'alibi succeed in achieving understanding, by employing a set of contexts to play the role of knowing the intended meaning? The research includes several objectives that can be summarized in: explaining the importance of linguistic and communicative studies, and presenting a concept of context and its role in Al-Tha'alibi's interpretation; and clarifying its purpose in the study, and objective importance: represented in explaining Al-Tha'alibi's efforts and valuable contributions in the field of interpretation and approximating the Qur'anic text, and scientific importance: manifested in modern studies of interpretation based on important and valuable aspects; and the results obtained are Al-Tha'alibi's contribution touches from previous interpretations in employing the mechanisms of different contexts represented in the eloquence of the Holy Qur'an, and the role played by interpretation in conveying the meaning in a systematic way, which enables assistance in understanding and comprehension.

Keywords: Context; Al-Tha'alibi's interpretation; contextual mechanisms; pragmatics; linguistic studies.

*المؤلف المرسل: ط/د عبد الرحمن كرومي

مقدمة:

تمهيد:

إنّ المفسرين منذ القدم يعتنون بظاهرة السياق القرآني في تأويل الآيات والسور، والاعتناء بمعالجة القضايا اللغوية، وتوظيف المعاني تماشيا مع الهدى الرباني، فكيف لا وهم يتعاملون مع أعلا كلام، وأبلغ ذكر، فمن الضرورة بمكان الإلمام بكل المعطيات التي تثبت معرفة قصد الله تعالى، وتحقيق عملية الإفهام، والتوصل إلى المقاصد الشرعية، مع استثمار جميع آليات السياق، والعناصر التداولية المفيدة في تقريب المعنى الإلهي للقارئ.

ويُعدّ الثعالبي من خلال تفسيره "الجواهر الحسان" عالما فريدا في تأويله للكثير من الآيات التي عارض بها بعض المفسرين قبله كابن عطية الأندلسي، وما حوته من إثباتات وظفت على أساس أحكام شرعية لها من الأثر ما يبين صدقها وصحتها، وهذا ما انطوى عليه التفسير وأجاد كاشفا أن للثعالبي رجاحة عقل، وسعة علم باللغة منقطعة النظر، تظهر في اشتغاله على تحليل الخطاب القرآني باستثمار الآليات التداولية، وتوظيف تحليلات السياق وعناصره المختلفة، الداخلية والخارجية، بالإضافة إلى الافتراض المسبق، ومتضمنات القول وما إلى ذلك.

إشكالية البحث:

إذا كان السياق من أهم المعطيات التي تقوم عليها التداولية، فإن فهم الخطاب بصفة عامة وفهم الخطاب الإلهي بصفة خاصة، لا يمكن تحقيقه إلا بالوقوف على مختلف السياقات التداولية التي تمحّض عنها، فلهذا نطرح الإشكالية التالية: إلى أيّ مدى وفق الثعالبي في تحقيق الفهم، عن طريق توظيف جملة من السياقات لتأدية دور معرفة المعنى المراد؟

فرضيات البحث:

يشتمل البحث على الفرضيات التالية:

- بيان أهمية الدراسات اللغوية التداولية.
- تقديم مفهوم للسياق ودوره في عند المفسرين.
- بيان المقصود بالسياق التداولي في الدراسات اللغوية الحديثة.
- الكشف عن الطريقة الإبداعية عند الثعالبي في توظيف السياق التداولي.
- اهتمام الثعالبي في تفسيره بالأدلة المقنعة رجوعا إلى ما يأتي في مختلف السياقات، حسب ما تقتضيه الآية، وما يمليه السياق.

منهجية البحث:

اعتمدت في البحث على منهجية تكمن في مقارنة تحليلية لاستنباط المعاني القرآنية والتعمق فيها بمعرفة المقاصد الإلهية بواسطة الآليات السياقية، للوصول إلى فهم المعاني، وفك الوجوه الإعجازية في النص القرآني الذي لا يؤتى إلا لمن شاء له الله ذلك، فأعطاه الفهم الروحي.

الأدوات المستعملة في البحث:

تتجلى فيما يلي:

أدوات منهجية: تظهر في التعرف على السياق التداولي في استنطاق النصّ القرآني، وتبين الهدف منه في الدراسة، وبيان أهميته الأساسية المهمة في تجلية المعاني القرآنية وفق المتغيرات والتطورات الواقعية، مع استحضار جميع الشواهد والأدلة المعبرة عن مدى قدرة الخطاب القرآني في مسايرة الواقع، وذلك بواسطة التأكيد على أهمية دراسة النصوص القرآنية دراسة لغوية تداولية، وتخطي الجانب التركيبي البنوي الكلاسيكي إلى آفاق هادفة تخدم الخطاب اللغوي في بعده الاستعمالي، لأنّ اللغة بالتأكيد رموز تعبر عن معان كثيرة وعميقة ومتداخلة ومترابطة في آن واحد، يتطلب فكّ شفراتها، وإتقان فن التعامل معها.

أدوات موضوعية: وهي الوقوف على بيان جهود الثعالبي وإسهاماته القيمة في مجال التفسير وتقريب النصّ القرآني، بوصفه أحد أهم مفسري القرآن الكريم، والكشف عن بعض وجوه الإعجاز القرآني في معرفة مراد النصّ القرآني، وكيف وافق هذا مع مراعاة توجيه المعنى لحال المتلقي حسب سياق النصّ القرآني، وذلك على أساس أهم متطلبات تحقيق تداولية النص، ولا يمكن أن نستغني أبدا عن الاستعمال اللغوي في سياق معرفة مراد الله عزّ وجل، وفهم النصّ القرآني فهما يليق ويوافق الشرع.

أدوات علمية: وهي أنّ الدراسات الحديثة للتفسير تركز على جوانب مهمة وقيمة، حيث يمكن الجمع بين اللسانيات التداولية مع أهم السياقات المتجلية في تفسير الثعالبي، والتي استوحها من الدراسات الحديثة اقتصارا على ما ورد في الخطاب القرآني، والتراث العربي النحوي والبلاغي والأصولي، لتخلص إلى نتائج تخدم الخطاب القرآني وتقريب فهمه وتأويله.

I. السياق:

انصب اهتمام النقاد واللغويين واللسانيون على ظاهرة السياق من وجهات نظر مختلفة مؤكدين جميعا على أن له علاقة وطيدة بفهم النصوص، سواء في ذلك ما تعلق بالسياق الداخلي أو السياق الخارجي؛ والخطاب القرآني من أهم الخطابات التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بالسياق، فالبحت عن السياق الداخلي في فهم الخطابات الدينية تتوصل أنه لا يمكن فهم مقاصد القرآن دون اللجوء إلى كشف القرائن والسياقات النصية التي ارتبط بها المقام لكشف المعنى المقصود، وهذه القرائن تؤدي وظيفة المرشد للتعامل مع هذا الخطاب، ورغم ذلك فإنه يجب على المتلقي أن يحمل المعنى الظاهر للكلام على أنه يمثل قصد المتكلم ما لم تدل عليه قرينة لفظية أو معنوية، وإن تعارض المعنى الحقيقي للكلام مع المعنى الذي تقتضيه، وجب على المتلقي أن يلجأ إلى تأويلها على المعنى الذي تقتضيه، بحيث يتعامل مع هذه النصوص تعاملًا كليًا بناء على سياقاتها الداخلية، دون فصلها عن السياق الخارجي، والذي يشير في النص

القرآني إلى أهمية أسباب النزول في فهم مقاصده، وكذلك عن طريق الهدي النبوي، ومرجعيات المفسرين، وحتى في بلاغة القرآن الكريم في تقديم أساليب الإقناع وغير ذلك، قصد الابتعاد عن الزلات والمعيقات التي قد يقع فيها الفهم الذي يهمل السياق سواء الفهم المؤسس على الآية أو على السورة بأكملها، كما أن القرآن الكريم وبمنظور الخطابات الأخرى ودراساتها السياقية، نجد أنه يهيمن على جميعها رغم واقعيته.

II. تجليات السياق التداولي في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي:

يهتم المفسرون بتحليلات السياق في تفاسيرهم وحق لهم ذلك للغاية المنتظرة منهم، والثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" عنى السياق عموماً سواء أكان السياق داخلياً أم سياقاً خارجياً متضمناً سياق الحال والمقام والموقف والاجتماعي والسياسي والثقافي. وقد كان الثعالبي في تفسيره بارعاً في توظيف السياق والعمل به في فهم النص القرآني، وهو إدراك نابع من تغلغله في أنافي العربية، وفهمه العميق لطبيعتها، ودورها في التواصل والاستعمال.

وانطلاقاً من قراءتي لتفسير الثعالبي، أحاول فيما يأتي التوقف عند استنباط مظاهر توظيف السياق الداخلي بواسطة اللجوء إلى كشف القرائن لأجل التعامل مع الخطاب الإلهي، والسياق الخارجي المرتبط بالمقام لكشف المعنى المقصود، والذي يشير في التفسير إلى أهمية أسباب النزول في فهم مقاصد النص القرآني، وارتباطه بالتفكير العربي وما يتعلق بشؤونهم وعاداتهم، حتى يتجنب الثعالبي في تفسيره الأخطاء في الفهم باستعمال السياق، لأن أي خطاب لا يمكن تحليله أو تفسيره إلا بالعودة إلى السياق التداولي الذي تمخض عنه، والتعامل مع السياق القرآني ليس بالأمر السهل لأننا أمام نص لغوي قوي السبك يختلف تماماً عن النصوص الأخرى؛ فقد رُكبت فيه الكلمات والحروف تركيباً متقناً، مع مراعاة الوجوه الإعجازية الدالة على الهداية والرشاد، فهو تصميم إلهي قابل للتجدد ومسايرة الواقع والأحداث، فلا يحسن المرء أن مغالقات النص القرآني تتفتح أمامه مجرد معرفة علوم النحو والصرف والبلاغة، فهو تنزيل من حكيم حميد، يعطي الله لمن يشاء من عباده الإفهام الروحي الذي لا يناله بالممارسة، ولا بالدراسة.

III. سياق الخطاب من منظور تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي:

بناءً على تفسير الثعالبي يظهر أن تفسيره للخطاب القرآني يعتمد على بيان قصديته في كلماته وآياته وسوره، بالأهمية الفعالة في تأويل واستنباط الأحكام الشرعية، لجعله قابلاً للفهم، وذلك من خلال استدلاله بالأحاديث الصحيحة والبراهين المنطقية، وكذلك طريقته المعرفية اللغوية البعيدة عن التعقيد والفلسفة، فإن براون ويول يقران على أنه ينبغي لتحليل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب، والسياق لديهما يتكون من المتكلم / الكاتب / المستمع / القارئ / الزمان والمكان. لأنه يؤدي دوراً فعالاً في تأويل الخطاب وغالباً ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين (خطابي، ١٩٩١م، صفحة ١٧).

فقد كان الثعالبي في تفسيره متفرساً في بيان قصدية الخطاب القرآني، وهذا يدل على سعة معرفته بالظواهر اللغوية الشاملة دون تحيز أو تزمت أو تعقيد، استناداً في أدلته على الأحاديث الصحيحة الواردة عن النبي (صلى الله عليه و سلم).

كما اجتهد في إظهار مراعاة النصّ القرآني لحال المخاطب، مراعيًا الظروف النفسية والاجتماعية التي يمرّ بها؛ ملتصقين أثناء دراستنا للتفسير خصائص وسمات توحى بالأبعاد التداولية التي تبرزها القصدية من مراد الله عز وجل، والمقبولية من متلقي النصّ القرآني، وقد استطاع الثعالبي أن يوفق في الجمع بين بيان قصدية الخطاب القرآني في سياقه، مع الإحاطة بسياق النصوص والآيات والصور القرآنية وبين تحقيق الانسجام في تكريس العملية التواصلية مراعاةً لحال المخاطب، ولا يكون إطلاقاً للخطاب معنيّ، دون الإلمام بجوانب سياقاته المختلفة.

١. السياق الداخلي (النصي) في تفسير الجواهر الحسان للثعالبي:

يركز السياق الداخلي على البنية الداخلية للكلمة حسب توقعها في الآية الكريمة، فهو يشمل مستويات اللّغة الثلاثة، المستوى النحوي، والمستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، حسب ما جاء في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي وبناءً على مراد الله تعالى.

١.١. السياق النحوي:

يهتم السياق النحوي عموماً بالبنية النحوية للكلمات وعلاقاتها ووظائفها ومواقعها من الترتيب، ويقوم بتتبع اللفظ في الآية.

فقد أشار الثعالبي أنّ الباء جاءت في "بِسْمِ اللَّهِ" متعلقة عند نخاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت باسم الله، وعند نخاة الكوفة بفعل تقديره: ابتدأت باسم الله، واسم: أصله سمو؛ بكسر السين، أو سمو؛ بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمو (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ١٥٨)؛ ويبرز السياق النحوي في تبيين مراد الله في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ (سورة الرحمن، الآية ٧٨)، و﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ (سورة الأعلى، الآية ٠١)، وتأول السُّهَيْلِيُّ: سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ؛ على إقحام الاسم، أي: سبّح ربك، وإنما ذكر الاسم حتى لا يخلو التسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن الذكر بالقلب متعلقة المسمى، والذكر باللسان متعلقة اللفظ، وتأول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً﴾ (سورة يوسف، الآية ٤٠)؛ بأنها أسماء كاذبة غير واقعة على الحقيقة؛ فكأنهم لم يعبدوا إلا الأسماء التي اخترعوها، وهذا يُكتشف من العلاقة النحوية للفظ بالسابق واللاحق، فعند تتبع الآيات التي ورد فيها لفظ الجلالة نجد أنها كثيرة في تفسير "الجواهر الحسان" منها ما تقدم المسند إليه على المسند، وهو تقديم وجوب، فلنأخذ سورة النحل أمودجاً على هذا التقديم ففي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ (سورة النحل، الآية ٦٥). وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ (سورة النحل، الآية ٧٠). وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (سورة النحل، الآية ٧٢). تقدم المسند إليه لفظ الجلالة "الله" على المسند الذي هو الفعل، وهو عبارة نظام أسلوبي يراد به القصر، أي قصر صفة من الصفات على المسند إليه فيتقدم على المسند، لهذا اشتملت هذه السورة المباركة على العديد من الآيات لما جاء من تقديم لفظ الجلالة على الفعل، إظهاراً لنعم الله الكثيرة علينا، خلافاً لبعض الآيات التي وردت مرتبة في نفس السورة كقوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ (سورة النحل، الآية ٧٥). فهو عبد مسخر بإرادة سيده لم يتقدم لفظ الجلالة على الفعل فهي عبارة عن التصرف بإرادة الله.

وقد تطرق الثعالبي في تفسيره إلى ظاهرة الحذف كضرورة في تحديد السياق، والحذف يتم تقديره على أحسن ما يتلاءم مع غرض الكلام، وعلى ما تدل فيه العناصر النحوية، فيحذف من التعبير القرآني لفظ أو أكثر وفقا للسياق القرآني مؤديا هذا الحذف غرضا بلاغيا في غاية الإبداع والفن والجمال، فلننظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَادَا أَنْزَلْ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة النحل، الآية ٢٤)، فارتفع الجواب بحذف لفظة أنزل في قوله: «أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، و انتصب في جواب الآية بعدها في قوله: «خَيْرًا»، لأن الجواب يعرف من سياق الآيتين إذ جاءت الأولى في حق المشركين الذين لا يؤمنون فكأنهم قالوا: «الذي يقول محمد هو أساطير الأولين»، وجاءت الثانية في حق المؤمنين الذين آمنوا بالنزول فقالوا: «أنزل خيرا» وهنا دلّ السياق على الحذف وتقديره.

فقد لاحظ المفسرون وعلماء اللغة ومن بينهم الثعالبي، ورود كلمات في القرآن الكريم بمعاني غير المعاني التي وردت فيها في الشعر الجاهلي، وفي استعمال العرب قبل نزول القرآن ، فأرادوا أن يميزوا بين المعنى العربي والمعنى الإسلامي فقالوا هذا اسم لغوي وهذا اسم شرعي (عودة، ١٩٨٥م، صفحة ٢٢)، وليبيان ذلك نقف عند العلاقات النحوية في توضيح الدلالة في تفسير "الجواهر الحسان" مثل قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ (سورة الكهف، الآية ٩٨). في الأصل كما يعرف العرب هي استطاعوا، وللبلاغة النص القرآني حذفت التاء تخفيفاً لأن صعود السدّ أيسر من هدمه ونقبة والمقام هنا مقام تخفيف، وفي قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ (سورة التوبة، الآية ٣). فكلمة «رسوله» الأولى مجرورة ، والثانية مرفوعة، وربما تكون منصوبة على العطف على اسم أن لفظ الجلالة، ولا تكون مجرورة؛ لأن معنى الآية يمنع ذلك ويجرمه، ويغيره لمفهوم آخر، ولعل حادثة أبي الأسود الدولي مع ابنته خير ما يؤيد دور هذه العلاقات عندما قالت : ما أجمل السماء قال أبو الأسود : نجومها ، قالت : ما أردت الاستفهام بل التعجب ، قال لها : بل قولي ما أجمل السماء!

كما أنّ هناك قرائن معنوية في تفسير "الجواهر الحسان"، تفيد في تحديد السياق النحوي مثل علاقة الإسناد بين الفعل والفاعل، والمبتدأ والخبر، ثم بين الفاعل ونائبه فالجملة في القرآن الكريم قد تكون اسمية أو فعلية وكل منها يؤدي دوره حسب وروده في السياق اللغوي، وقد يكون الإسناد خبريا أو إنشائيا، مثل قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (سورة يوسف، الآية ٢٩). فهو أسلوب إنشائي جاء بصيغة الخبر أصلها «يا يوسف»، ومن القرائن الأخرى التعدية للمفعول والغائبة للمفعول لأجله المضارع المنصوب بعد اللام وكي والفاء ولن وإذن، والمعية للمفعول معه المضارع بعد الواو ، والظرفية للمفعول فيه ، والتحديد والتوكيد للمفعول المطلق، والملابسة للحال، والإخراج للاستثناء، والمخالفة للاختصاص وبعض المعاني الأخرى، فضلا عن قرائن لفظية تدخل في السياق مثل العلامة الإعرابية، والرتبة ، والصيغة ، والمطابقة ، والربط ، والتضام ، والأداة ، والنغمة، وينبغي التنويه إلى أن القدماء ذكروا شروطا للحذف منها الذي يتعلق ببحثنا، وهو أن يكون في المذكور دلالة على الحذف ويعرف من لفظه أو من سياقه (بشير، ١٩٩٦م، صفحة ٢٤٦). وأما السياق النحوي في قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُبَّتْ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ (سورة الانشقاق، الآيات ١-٤)، وفي قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ (سورة الزلزلة، الآيات ١-٢). لبيان أن الفعل الماضي جاء تقريراً حقيقياً لحدوث الفعل لا محالة، ففترن بـ"إذا" فعدلته عن المستقبل

دون أن يفقد التعبير أثره الذي يوحي به استعمال الماضي بدلا من المستقبل الصريح، لأن السياق سياق تهديد وتهويل من عذاب يوم القيامة.

٢,١. السياق الصوتي:

وظف الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" آلية السياق الصرفي لتحلية المعنى الصحيح، وتنسيقه بإضفاء النبرة الجمالية عليه، وانتبه للأهمية اللفظية منه من الناحية الاشتقاقية، وإبراز الوجوه الدلالية وما يحيط بها من قرائن لفظية أو حالية، وهنا نجد ما أشار إليه وهو بصدد تفسيره للآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ تَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (سورة الدخان، الآيات ٤٣-٤٩)، فالمشار إليه هو أبو جهل، ثم هي بالمعنى تتناول كل أئيم، وكل فاجر، ولفظ الزقوم من قوله لأصحابه: ترقموا، وهو طعمامي الذي حدث به محمد (صلى الله عليه و سلم) (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٢٠٢)، وأدت هذه الفواصل دورا كبيرا في السياق الصوتي من خلال اتساق الآيات اتساقا صوتيا من خلال الإيقاع والنبر والتنغيم، ويذكر أهمية القرآن الكريم في تأدية المعنى المعجمي واهتمامه بالصورة الصوتية للكلمة، وهذه العلاقة بين اللفظ (الصوت) وبين المعنى في الكلمة القرآنية الواحدة يشكل وحدة متكاملة لا سبيل للفصل بينها (السمرائي، ٢٠٠٣م، الصفحات ١١٥-١١٦) ومثل هذا نجده في قوله تعالى: ﴿كَأَلَا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ (سورة الفجر، الآية ٠٧). إذ نجد أنّ النبر قد وقع على الكاف ثلاث مرات في «دكت، دكا، دكا».

قد كان القرآن دقيقا في اختيار ألفاظه، ومنها لفظة «صكت» في قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتْ إِفْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ (سورة الذاريات، الآية ٢٩)، فيذكر الثعالبي أنها ضربت وجهها استهوا لا لما سمعت وهذا مستعمل في الناس حتى اليوم، فقد وقع النبر على كلمة (صكت) التي لا تقوم مقامها أية كلمة أخرى في هذا السياق المعبر، إذ أن القرآن الكريم يأخذ المعنى المعجمي.

٣,١. السياق الصرفي:

يُعد السياق الصرفي آلية من آليات تحليل الخطاب الإلهي ومهمة فعالة في تجلية المعنى القرآني، وطريقة ناجعة في إيصال المفهوم السليم ضمن البنية اللغوية السياقية؛ لذلك كان من الأهمية بمكان استجلاء الدور الفعال للكلمة العربية ضمن اشتقاقها الصرفي، والمراد هنا معرفة مدى دور علماء التفسير اللغويين في توظيف السياق الصرفي، ومنهم الثعالبي الذي برز في استعمال هذا النوع من السياقات، فهو من أهل اللغة وعلمائها حيث ذكر في قوله تعالى ﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ أنه يقال: خزي الرجل من يخزي خزيا، إذا ذلّ من حيث وقع في عارٍ وأخزاه غيره، وخزي يخزي خزيا إذا استحى، والمعنى المراد من ذلك كله هو يذلهم على فذل بذلك وهان ذنوبهم، ووقوع الافتضاح في البلية والشر.

وحديثه كذلك عن قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى يعتبون، فقد اعتمد على قول: أعتبت الرجل، إذا كفيته ما عُتِبَ فيه، كما نقول: أشكيت ما شكاً، وقد قال قوم: معناه لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا؛ وقال الطبري: معناه: ﴿يَسْتَعْتَبُونَ﴾ يعطون الرجوع إلى الدنيا فتقع منهم توبة وعمل، وهذا هو الراجح، وهو الذي تدل عليه الأحاديث، وظواهر الآيات في غير ما موضع (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٤٣٧).

تباينت أراء المفسرين في توجيه المعاني بأقوال مبنية على الخلاف في دلالة السياق الصرفي لأنّ القرآن الكريم حمّال أوجه تكون بسبب تنوع المعاني واختلافها، وما يحيط بها من قرائن لفظية وعاما الثعالي في تفسيره حين أشار إلى معان عديدة قد تحملها اللفظة، فانصب اهتمامه على الناحية الاشتقاقية الصرفية بتوظيف الآليات لإبراز وجوه المعاني العديدة، اعتناءً بألفاظ القرآن الكريم ودلالاتها السياقية الصرفية المبنية على إدراك الأصول الاشتقاقية.

٢. السياق الخارجي في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالي:

إذا أمعن النظر في جهود المفسرين ومن بينهم الثعالي في تفسيره "الجواهر الحسان"، وجدناهم يحددون المعنى بمراعاة الملايسات المحيطة بالنص القرآني بكل جوانبها المتعلقة بالمعنى عند تحديده، وكذا الأحكام التفسيرية الخاصة به، مثلما راعوا مكونات السياق الداخلي للنص القرآني، معتمدين فيه على أسباب النزول، والعادات الاجتماعية، وقواعد العربية المجردة بمقولات نظرية وأخبار الأمم السالفة وقوانين العرب في كلامها، والأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال وأراء المفسرين والفقهاء السابقين في علوم التفاسير، أمثال الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ كما استندوا على عنصر الزمان والمكان بأخذ مسألة المكي والمدني والناسخ والمنسوخ وربطها بأسباب النزول؛ فلا ريب أنّ السياق الخارجي قد أسهم في تحديد المعاني لديهم بصورة وافية ومنهج استقرائي دقيق.

ويمكننا أن نعرف هنا عمّا جاء في تفسير "الجواهر الحسان" من مكونات السياق الخارجي التي أسهمت في تحديد مجموع الظروف الخارجية التي تحيط بالنص، ومنه إزالة الغموض الذي قد يكتنف بعض الآيات القرآنية، فتزيد السياق القرآني وضوحاً وإجلالاً، انطلاقاً من معرفة أسباب النزول، ومكي القرآن ومدنيه، مروراً ببلاغة القرآن الكريم في الإقناع والإبداع وبالمكان والزمان، إلى ما ورد عن أقوال الرسول (صلى الله عليه و سلم) وأفعاله، وتناول الظروف الاجتماعية، وآراء السابقين من المفسرين.

١,٢. أسباب النزول، ومكي القرآن ومدنيه:

يركّز الثعالي كثيراً على أسباب النزول في تفسير الآيات القرآنية استناداً إلى تداولية السياق في توظيف الله تعالى للكلمات توظيفاً يليق بمراده، وهذا الفن شريف عزيز يستطيع المفسر أن يحسن الوصول إلى المعنى من الآية، فيسهل فهمها بمعرفة الملايسات التي أحاطت بنزولها.

وقد ذكر الثعالي أسباب نزول بعض الآيات، فمثلاً: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (سورة النساء، الآية ٥٨)، فيقول الثعالي: خطاب للنبي (صلى الله عليه و سلم) في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة، ومن ابن عمه شيبه، فطلبه العباس بن عبد المطلب؛ ليضيف السّدانة إلى السّقاية، فدخل النبي (صلى الله عليه و سلم) الكعبة، وكسر ما كان فيها من الأوثان، وأخرج مقام إبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية . قال عمر بن الخطاب: «فخرج نبي الله وهو يقرأ هذه الآية، وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبه فقال لهما: خذاها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم» .

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزًا﴾ (سورة النساء، الآية ١٢٨). يقول الثعالبي: «واختلف في سبب نزول الآية، فقال ابن عباس وجماعة: نزلت في النبي - عليه السلام - وسودة بنت زمعة» ثم حكى أقوالاً أخرى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ (سورة الإسراء، الآية ٨٥). يقول الثعالبي: روى ابن مسعود؛ أن اليهود قال بعضهم لبعض: سلوا محمداً عن الروح، فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي فسألوه، فنزلت الآية. وقيل: إن الآية مكية والسائلون هم قريش بإشارة اليهود (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٤٩٤).

فجاء في سورة "المسد" في قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (سورة المسد، الآية ٠١)، في صحيح البخاري وغيره عن ابن عباس: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (سورة الشعراء، الآية ٢١٤)، ورهطك منهم المخلصين خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه و سلم) حَتَّى صَعِدَ الصَّنَاءَ فَهَتَفَ: يَا صَبَاحَاهُ، فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟ فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي قَائِلُوا: نَعَمْ؛ مَا جَرَيْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا، قَالَ: فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ يَوْمَ يَدْيَا عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَقَالَ أَبُو هَبٍ: تَبَا لَكَ، مَا جَمَعْنَا إِلَّا لِهَذَا، ثُمَّ قَامَ فَتَنَزَّلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ﴾ (المسد) إِلَى آخِرِهَا، «وَتَبَّتْ» معناه: خَسِرَتْ «وَالْتَبَابُ» الْخُسْرَانُ، وَالذَّمَارُ، وَأُسْنَدَ ذَلِكَ إِلَى الْيَدِينَ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْيَدَ مَوْضِعَ الْكَسْبِ وَالرِّيحِ وَضَمَّ مَا يُمْلِكُ، ثُمَّ أَوْجَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ قَدْ تَبَّ، أَي: حُتِمَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ (الرمزخري، ٢٠٠١م، صفحة ٨١٤) «وقد تب»، وَأَبُو هَبٍ هُوَ عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَهُوَ عَمُّ النَّبِيِّ (صلى الله عليه و سلم) وَلَكِنْ سَبَقَتْ لَهُ الشَّقَاوَةُ، قَالَ السَّهْلِيُّ: كَنَاهُ اللَّهُ بِأَبِي هَبٍ لَمَّا خَلَقَهُ سَبْحَانَهُ لِلْهَبِ وَإِلَيْهِ مُصِيرُهُ أَلَا تَرَاهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ هَبٍ﴾ فَكَانَتْ كُنْيَتُهُ بِأَبِي هَبٍ تَقَدَّمَتْ لِمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنَ اللَّهَبِ (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٦٣٦).

فقد أثرت أسباب النزول على توجيه الدلالة، وذلك المصير المحتوم لأبي هب رغم تواجده بين الناس، فقد كتب له جهنم، والخسران، فأضفى للآية وضوحاً وفهماً، بسبب التصريح التام الذي لا غبار عليه في معرفة على من تدور السورة.

ويذكر الثعالبي في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص، الآية ٠١) أن اليهود دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه و سلم) فقالوا له: يَا مُحَمَّدُ؛ صِفْ لَنَا رَبَّنَا وَانْسِبْهُ فَإِنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ فِي التَّوْرَةِ وَنَسَبَهَا، فَارْتَدَّ النَّبِيُّ (صلى الله عليه و سلم) مِنْ قَوْلِهِمْ حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، وَنَزَلَ جِبْرِيلُ بِهَذِهِ السُّورَةِ.

«وَأَحَدٌ» معناه: وَاحِدٌ قَرُّدٌ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِ الْوَحْدَانِيَّةِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ابْتِدَاءٌ، وَاللَّهُ ابْتِدَاءٌ ثَانٍ، وَأَحَدٌ خَبَرُهُ وَالْجُمْلَةُ خَبَرُ الْأَوَّلِ، وَقِيلَ هُوَ ابْتِدَاءٌ وَاللَّهُ خَبَرُهُ وَأَحَدٌ بَدَلٌ مِنْهُ، وَقَرَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَغَيْرُهُ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ» «وَالصَّمَدُ» فِي كَلَامِ الْعَرَبِ السَّيِّدُ الَّذِي يُصَمَدُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ وَيَسْتَقِيلُ بِهَا وَائْتَشَدُوا:

لَقَدْ بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدٍ * يَعْمُرُو بَنَ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وبهذا تفسّر هذه الآية، لأن الله تعالى جلت قدرته - هُوَ مُوجِدُ الْمُجُودَاتِ وإليه تصمد وبه قوامها - سبحانه وتعالى.

وقد أشار الثعالبي في سورة يوسف أن سبب نزولها هو تسليّة النبي (صلى الله عليه و سلم) عمّا يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف كما جاء في السورة، لهذا كما قال لم يتكرر من معانيها شيء في القرآن كما تكررت قصص الأنبياء، وأنها ردّ على الحجة التي اعترضت بأن الفصاحة تتمكن من تردد القول، وأجاب الثعالبي أنّها لو تكررت، لفترت فصاحتها.

وأما ما ذكره لمكي القرآن ومدنيه، فكان يذكر في أوائل السور كونها مكية أو مدنية، فمثلاً في سورة الحجرات يقول: وهي مدنية بإجماع، ويقول في «ق»: وهي مكية بإجماع، وفي سورة الأنفال: مدنية كلها، قال مجاهد: إلا آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (سورة الأنفال الآية ٣٠).

٢,٢. بلاغة القرآن الكريم في الإقناع والإبداع:

إنّ من أهم العمليات التواصلية التي ركز عليها الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" هي الإستراتيجية الإقناعية في استعمال اللغة، والتي تركز على التداول اللغوي، وفرض أحكام شرعية على المتلقين بصور إبداعية، هدفها رسوخ العقيدة والتحلي بما أنزل على محمد (صلى الله عليه و سلم).

فحين يقول الله تعالى: ﴿ذُرْهُمْ يَا أَكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الحجر، الآية ٠٣)، فهنا تهديد ووعد، مع ما فيه من المهادنة، فننظر كيف وظف الثعالبي بأنّ في الآية تهديدين الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فلا تطيب حياة من الأكل والتمتع واللهو بين هذين الوعدين مع ذكر الموت ومرارته.

الدارس لتفسير الثعالبي يجد أنه زواج بين أساليب الإقناع وقوة الإبداع، فتحل عملية التأثير في المتلقين، وفق منهجية تقويمية، ظاهرها الإقناع والتأثير في المخاطب، وباطنها الإبداع في حلت جميلة تختفي وراء المقاصد الإلهية.

٣,٢. الحديث النبوي الشريف:

السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني بعد النص القرآني للتشريع، ولاستنباط الأحكام الفقهية، وفهمها، فلا نكاد نفرغ من قراءة تفسير سورة عند الثعالبي دون ذكر جملة من الأحاديث النبوية الشريفة، لفهم مضامينها وإثبات الحجج الدالة على مقاصدها، فهي تندرج ضمن السياق الخارجي لا الداخلي، لأنها ليست جزءاً من التشكيل اللغوي للقرآن الكريم، بل معطى خارجي تسهم في إبراز الدلالة، وإظهار المعنى، فهي تقتصر غالباً على أفعال الرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم)؛ وقد استعان بها الثعالبي كثيراً حينما يريد أن يبين معاني التشكيل اللغوي للقرآن الكريم، من ذلك مثلاً تحديده لمعنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة الأعراف، الآية ١٥٧)، يحتمل أن يكون ابتداء كلام وصف به النبي (صلى الله عليه و سلم)، وقد ذهب الثعالبي أنّ المعروف هو ما عُرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءة، فهو معروف بالشرع، فقد قال رسول الله (صلى الله عليه و سلم): «بُعِثْتُ لَأَتَمِّمَ مَحَاسِنَ الْأَخْلَاقِ»، توظيفاً منه بمعطيات السياق الخارجي المتمثلة بالحديث النبوي الشريف، للحث على الخصال الحسنة التي يتحلى بها النبي الأعظم في أفعاله.

وجاء في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ (سورة التوبة، الآية ٢٠). لما حكم الله سبحانه في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستون، بين ذلك في هذه الآية الأخيرة، وأوضحه، فعدد الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، وحكم على أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، والفوز، بلوغ البغي، إمّا في نيل رغبة، أو نجاة من هلكة، وينظر إلى معنى هذه الآية في حديث رسول الله (صلى الله عليه و سلم) «دَعُوا لِي أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَتَقَقَّ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا يُصِيفُهُ»؛ ولأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم أنبى الإسلام، وتمهد الشرع (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٤٥٢)، والظاهر أن الله سبحانه يجزل العطاء لمن جاهد، وأخلص نيته لله، واتبع ما جاء به الهدي النبوي، وصفت نيته دون شك أو ريب.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ (سورة التوبة، الآية ٢١)، هذا وعد كريم من رب رحيم، وفي الحديث الصحيح: «إِذَا اسْتَقَرَّ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَكَيْفَ لَا نَرْضَى يَا رَبَّنَا؟ فَيَقُولُ: إِنْ سَأَعِطَيْتُكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ! رِضْوَانِي أَرْضَى عَلَيْكُمْ؛ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا». وهذا دأب الثعالبي في الاستناد إلى الأحاديث النبوية الشريفة، كونها من معطيات السياق الخارجي في توجيه الدلالة، ومراد الله □، والارتباط الوثيق بين منهج الله، والسنة النبوية المتمثلة في أقوال وأفعال الرسول (صلى الله عليه وسلم)؛ ففسر كتاب الله بعضه ببعض، ثم بالسنة الشريفة، ثم بتفسير الصحابة والتابعين.

ومن جملة ما اعتمد عليه من مصادر السنة الشريفة، صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، وحلية الأبرار للإمام النووي، وسلاح المؤمن لتقي الدين الشافعي، ومصابيح السنة للبعوي، والموطأ للإمام مالك.

٢، ٤. التفاسير السابقة التي اعتمدها الثعالبي في تفسيره:

لا أحد من الناس يستطيع أن ينكر أفضلية ما أتى به أئمة السلف، فبهم حفظ الله الدين من الزل، وصار حال الناس إلى ما هم عليه من عبادة الله وتوحيده.

اعتمد الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" على كلام من سبقوه من المفسرين، فهو خلفهم، وتلميذهم، وتعد التفاسير من الأهمية بمكان في العناية بالسياق الخارجي، رغم اختلاف درجات المفسرين وتباينها، فقد اعتنوا عناية كبيرة بظاهرة السياق عامة، والسياق الذي يوضح مقاصد الذكر الحكيم خاصة.

تنوعت مصادر الثعالبي وتشكلت على اختلاف المفسرين، أهمها تفسير ابن عطية المسمى "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" وهو الأصل الذي اعتمد عليه الثعالبي، فعمل على اختصاره، وزاد عليه، مع بيان فضله وأهميته، لهذا يُعد عاملاً أساسياً في إبراز السياق الخارجي لتفسير الثعالبي، حين وظفه أجلّ توظيف لإظهار العلاقة بين النصّ القرآني، ومنتجه، وبينه وبين متلقيه، وبذلك فهو يراعي العناصر السياقية المؤثرة في عملية التواصل.

ومن المصادر التي استقى منها الثعالبي في "الجواهر الحسان"، "مختصر تفسير الطبري" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمي النحوي، و"مختصر البحر المحييط" لأبي حيان اختصره الصفاقسي، وسمّاه "المجيد في

إعراب القرآن المجيد"، يقول محمد بن مخلوف واصفاً كتاب المجيد: وهو من أجل كتب الأعراب، وأكثرها فائدة (مخلوف، ٢٠٠٣م، صفحة ٦٠)؛ وتفسير مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير للإمام الرازي، وهو من أجل التفاسير، فقد وفى التفسير حقه، وهو موسوعة في اللغة، والأصول، وعلم الكلام، وكذا العلوم الكونية، وغيرها من الفنون العلمية؛ ولم ينصّ الثعالبي في تفسيره أنه استقى من "مفاتيح الغيب"، إلا أنه نقل منه في ثانياً تفسيره، فأكثر من النقل. كما استوحى من كتاب "أحكام القرآن" للقاضي أبي بكر العربي، وأكثر النقل منه خلال استقراء وتناول آيات الأحكام، لأن الكتاب لا يتعرض لسور القرآن كلها، بل يتعرض لما فيها من آيات الأحكام فقط، وذلك بذكر السورة، فيعقبها بذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام، ليأخذ في شرحها آية آية، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة في السورة، فالكتاب عبارة عن مرجع هام، نقل منه الثعالبي في ثانياً تفسيره. إضافة إلى كتاب "غريب القرآن الكريم" لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، وكتاب "مختصر غريب القرآن" للحافظ زين الدين العراقي.

IV. الافتراض المسبق في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي:

يُعد الافتراض المسبق فرعاً من فروع التداولية، عمد إليه الثعالبي لإنجاح العملية التواصلية التي تنبني على الأسس السابقة، المنطلقة منها، وكلما ساء الفهم كان هناك ضعف مسبق في الافتراضات فتفشل عملية نجاح التواصل، حيث يرى التداوليون أن الافتراضات المسبقة ذات أهمية قصوى في عملية التواصل والإبلاغ، فلا يتسنى لنا أن نعلم طفلاً معلومة جديدة إلا بافتراض وجود أساس سابق يعتمد عليه في الانطلاق ونبني عليه الأحكام اللاحقة. فمن هذا المنطلق وجدنا الثعالبي من خلال تفسيره يستعمل الافتراضات المسبقة التي انبنى عليها الخطاب القرآني، لفهم المقاصد الإلهية، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (سورة الأنبياء، الآية ٢٢). فيكون معنى الآية المباركة حسبما أشار إليه الثعالبي، «ونقتضب شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى إله غيره؛ على ما قال أبو المعالي وغيره: أنا لو فرضناه، لفرضنا أن يريد أحدهما تسكين جسم والآخر تحريره، ومستحيل أن تنفذ الإرادتان ومستحيل ألا تنفذ جميعاً، فيكون الجسم لا متحركاً، ولا ساكناً، فإن صحت إرادة أحدهما دون الآخر، فالذي لم تتم إرادته ليس بإله» (الثعالبي، ١٩٩٨م، صفحة ٤٧٦)، وهنا نلاحظ أنّ الافتراض معلوم يدل على السياق الصريح الواضح في مضمون الآية الكريمة، وهو معروف لدى المخاطبين فضلاً عن المتكلم، وقد دلّ هذا الافتراض على السخرية بالمشرّكين الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى، متبعين أهواءهم بغير علم، مع أنّ الأمر في غاية السهولة والبساطة.

كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ﴾ (سورة الأنبياء، الآية ٦٣)، فسيدينا إبراهيم عليه السلام أجابهم بما يظلمون به أنفسهم، انطلاقاً من الافتراضات المسبقة لدى قومه أن الحجارة لا تتكلم فكيف بها تضر وتنفع حسب زعمهم واعتقادهم.

من هذه الافتراضات تبين الدور الرئيسي التي تؤديه في عملية التواصل الكلامي، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها، فبدون الافتراضات المسبقة يصعب التواصل بين المخاطب والمخاطب، لأن الإمام بالمعلومات السابقة المتعلقة

بالخطاب الإلهي تكشف عن عدم التصريح في الكثير من الآيات، فوجب استحضار المعطيات التداولية لتحقيق القصد وهو التواصل مع مراد الله عز وجل وفق ما أراده المفسر وهو الثعالبي.

خاتمة:

حاولت في هذه الدراسة معرفة دور السياق بالاعتماد على اختيار الآليات المناسبة لعمليات الفهم، عن طريق الوصول إلى المعنى المقصود في تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي، واستخلاص مختلف السياقات المتحلية في السياق الخارجي بمختلف عناصره، والسياق الداخلي بأنواعه المختلفة، لاكتمال عملية التبليغ والفهم والإقناع، وقد توصلت إلى عدة نتائج نجملها فيما يأتي:

- أبان الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" كفاءته العالية، ووعيه العميق بأهمية السياق في تحلية المعنى من مقاصد الخطاب القرآني، وأثره في تأدية الفهم مراعاة لحال المتلقي، انطلاقاً من توظيف اللغة في عملية التواصل.

- ساهم الثعالبي في تفسيره "الجواهر الحسان" من إضافة بعض اللمسات المختلفة عن التفسير السابقة في توظيف آليات السياق الخارجي المتمثلة في بلاغة القرآن الكريم، والدور الذي أداه التفسير في توصيل المعنى بطريقة منهجية، تمكّن من المساعدة على الفهم والاستيعاب.

- خلص الثعالبي إلى الكشف عن الدلالة التاريخية والاجتماعية التي يمكن استنباطها من أسباب النزول ومكي القرآن ومدنيه، لإظهار الفوائد الثقافية العلمية والأحداث الاجتماعية، وهذا يدل على وعي الثعالبي في إبراز السياق الاجتماعي الذي جاء في تفسير "الجواهر الحسان"، وقد دلت عليه الألفاظ الملتصقة بالتصاقاً بالبنية الدينية، والثقافية، والاجتماعية، وفق إستراتيجية توجيهية معتمدة على جملة من الحجج والأدلة.

- احتوى تفسير "الجواهر الحسان" للثعالبي على جملة من المقاصد الإلهية التي لا بد لها من صياغات وشروح، تتناسب والعصر الذي يعيش فيه الثعالبي لتمكين المتلقين من الوصول إلى إدراك الغايات الحقيقة من مراد الله تعالى دون تبعية أو تقليد، مع التشبث بها في أحيان أخرى.

- نجح الثعالبي في استعمال الافتراض المسبق لتحقيق العملية التواصلية التي تبني على الأسس السابقة، بتوظيف جملة من الأدلة والشواهد في سياقات تتضمن معنى القول في الاستعمال التداولي، كما اعتمد على الإجراءات والآليات المتواجدة في مختلف الدراسات الحديثة، المتمثلة في التداولية كمنهج أثبت نجاعته في كيفية التعامل مع الخطاب الإلهي ، وتبليغ المقاصد الربانية بالاعتماد على السياق التداولي.

قائمة المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. الزمخشري، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل، فقي وجوه التأويل، مكتبة العبيكان، ج٠٤٠٠.
٣. محمد خطابي، لسانيات النص(مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩١م.
٤. خليل خلف بشير، السياق اللغوي في القرآن الكريم، جامعة البصرة، كلية الآداب، المجلة دراسات نحفية.
٥. عبد الرحمن الثعالبي، تفسير الجواهر الحسان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣، ج٠٣، ١٩٩٨، عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، مكتبة المنار، الأردن الزرقاء، ط١، ٢٠١٥، ١٩٨٥م.
٦. فاضل صالح السمرائي، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ط٣، ٢٠٠٣م.
٧. محمد بن محمد بن قاسم مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، مج٠١، ط١، ٢٠٠٣م.